الإحياء الشعري في المغرب العربي

الأمير عبد القادر

هو عبد القادر بن محيي الدين: كاتب وشاعر وفيلسوف وسياسي ومتصوف، ولد بقرية القيطنة قرب مدينة معسكر بالغرب الجزائري في 6 سبتمبر 1808 وهو رائد سياسي وعسكري مقاوم، قاد جيشه خمسة عشر عاما أثناء غزو فرنسا للجزائر هو أيضا مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة ورمز للمقاومة الجزائرية ضد الاستعمار والاضطهاد الفرنسي.

تمكن من تعلم القراءة والكتابة وهو في سن الخامسة، وتحصل على الإجازة في تفسير القرآن والحديث النبوي وهو في الثانية عشرة من عمره، ثم نال لقب حافظ، وتمكن من إلقاء الدروس في الجامع التابع لأسرته في مختلف المواد الفقهية، كما درس علوم التوحيد والفقه والحديث والفلسفة، خرج مع والده إلى الحج سنة 1825 ثم رجع سنة 1828، بايعه الناس في الجزائر ليكون أميرا عليهم، فتعاقد أولا مع العدو الفرنسي ليتقي الخرب معه إلى حين، فبادر إلى تنظيم شؤون إدارة الإمارة، وسكِّ النقود، وسنَّ قوانينَ العدل والقضاء فأنهى الفوضى بين القبائل وقضى على اللصوص والمجرمين وقطاع الطرق، وسرعان ما ظهرت نتائج كل ذلك على انتشار الأمن واستقرار الأنفس، الأمر الذي أزعج سلطات الجيش الفرنسي فنقضت المعاهدة معه وهاجمته، فقابلها بالمقاومة القوية الشرسة[1]، وألحق بالجيش الفرنسي خسائر فادحة، لكنه اضطر إلى الاستسلام سنة 1847 بسبب سياسة الانتقام من الأهالي العزل التي انتهجتها فرنسا، وبسبب الخيانات الداخلية والخارجية، فاعتقل في قصر أومبواز بفرنسا ثم نفي إلى دمشق وتوفي فيها يوم 26 ماي 1883 وفيها دفن، ثم نقل جثمانه إلى بلده الجزائر عام 1966.

آثاره:

كتاب: المواقف.

كتاب: ذكرى العاقل وتنبيه الغافل.

كتاب: المقراض الحاد لقطع لسان منتقض دين الإسلام بالباطل والإلحاد.

وكانت له مراسلات كثيرة مع مختلف الشخصيات العربية والأجنبية، تظهر فيها براعته التعبيرية النثرية، وتكشف عن تمكنه في مناقشة أفكار الخلافية مع أهل الملل الأخرى، كمراسلاته مع الجنرال (دوماس) التي تدل على اطلاعه العميق لمختلف الأناجيل ونصوص العهد القديم...، وله ديوان شعري يضم ثمانية وسبعين قصيدة بقيتْ من شعره في مختلف الأغراض القديمة التي

[1] ينظر: ديوان الأمير عبد القادر الجزائري: تحقيق: ممدوح جقي، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، دط، دت، ص: 3.

استطاع أن ينهل من منابعها في قراءاته للشعر العربي القديم، فكانت قصائد الأمير صورة مستحدثة لأنموذج الشعر القديم الذي استطاع أن يطلع عليه، من غير تبديل أو تجديد في النواحي الفنية، فقد حافظ على عمود الشعر التقليدي الملتزم بنظام القافية والأوزان الخليلية، لكن الأهمية الإبداعية الإحيائية للأمير تكمن في قدرته على العودة بالشعر إلى قوته المعهودة قبل عصر المماليك، وفي تخليصه مما علق به من مظاهر الضعف مثل كثرة التوشيح بالمحسنات البديعية والزخارف اللفظية حتى غدت ـ في تلك الفترة ـ هدفا لقرض الشعر من دون الاهتمام بالموضوع أو الفكرة ...، والأمير ((في فخره يستمد من عنترة أو المتنبي ومن التجاريب التي عاناها، فقلد دخل المعارك بنفسه ومارسها ممارسة الجندي والقائد، وجُرح فيها مرة وقُتل فَرَسُهُ أكثر من مرة، وازدحم عليه الأبطال، وتهاوى أمامه عدد من القتلى والجرحى، قَصْعًا بالرماح وهَبْرًا بالسيوف))[2]، ومن نماذج قول الأمير في غرض الفخر:

لنا في كل مَكْرُمَةٍ مَجال ومن فوق السِّماكِ لنا رجالُ
ركبنا للمكارم كلَّ هَوْل وخضنا أبحراً ولها زجال
إذا عنها توانى الغير عجزاً فنحن الراحلون لها العجال
سوانا ليس بالمقصود لما ينادي المستغيث ألا تعالوا
ولفظ الناسِ ليس له مسمّى سوانا والمنى منّا ينال
لنا الفخر العميم بكل عصرٍ ومِصرٍ هل بهذا ما يقال
رفعنا ثوبنا عن كل لؤمٍ وأقوالي تصدّقها الفعال[3]

وفي الغزل يقول:

أقول لمحبوبٍ تخلّف من بعدي عليلاً بأوجاع الفراق والبعد
أما أنت حقا لو رأيت صبابتي لهان عليك الأمرُ من شدة الوجد
وقلتَ أرى المسكينَ عذَّبَهُ النوى وأنحله حقا إلى منتهى الحدّ
وساءك ما قد نلتُ من شدة الجوى فقلت وما للشوق يرميك بالجد
وإني وحقِّ الله دائمُ لوعةٍ ونار الجوى بين الجوانح في وقد

[2] المصدر السابق، ص: 11.
[3] المصدر نفسه، ص:23.

غريقٌ أسيرُ السقم مَكْلومُ الحَشا حريقٌ بنار الهجْرِ والوجْدِ والصَّدِّ[4]

ويقول في المدح:

أوقات وصلكم عيد وأفراح يا من هم الروح لي والروح والراح

يا من إذا اكتحلت عيني بطلعتهم وحقّقت في مُحَيّا الحسن ترتاح

دبّت حُمَيّاهم في كل جوهرةٍ عقل ونفس وأعضاء وأرواح

فما نظرت إلى شيء بدا أبداً إلا وأحباب قلبي دونه لا حوا[5]

ويقول في الحكمة:

أيا نفس إن الأمر غيبٌ فما تدري بماذا يكون الكشف في آخر العمر

فإما بشيرٌ باللقاء وبالرضى على طول عتب بالزيارة للزور

وإما بضدّ بل ولا كان ضدّ ذا تعالى إلهي عن عذابي وعن ضري

وليس تلافٍ بل ولا ردّ فائت هناك ولا يجدي سوى الجبر للكسر

أليس لهذا الخطب ويحك شاغل عن الأهل والأصحاب زيد وعن عمرو[6]

ومن شعره الصوفي يقول:

أردّدُ طرفي في الرسرم فلا أرى سوى من به كانت رسوما وآثارا

وأسألها عنه فكلّ أجابني بأنه ما رآه يوما ولا أدرا

فقلت لهم هذا عجيب فإنني ما أبصرته إلا بكم متظاهرا

عرفته منكم ثم زاد في عرفاننا بأنني إياه ولكن منكَّرا

عجبت له كيف اختفى بظهوره فعيني حجابه الظهور ولا انفرا

ألا فاعجبوا من ظاهرٍ في بطونه ومن باطن لا زال باد وظاهرا[7]

انتهى

[4] المصدر السابق، ص: 44.
[5] المصدر نفسه، ص: 152.
[6] المصدر نفسه، ص: 150.
[7] المصدر نفسه، ص: 163.